من تراب الطريق (٤٥٥)

هل ولي زمن(*) البسالة والشجاعة؟!

راودنى هذا الخاطر ، أو قل عاد إلى الذاكرة ، فهو خاطر قديم ، حين قرأت بأهرام الجمعة ٦/٤ عن الطائرات العمياء التى تهدد أخلاقيات الحروب . فقد انطلقت تحذيرات نقلتها وكالات الأنباء ، بوجوب وضع حد لاستخدام ما يسمى بالطائرات «العمياء» التى تطير بدون طيار ، فى حصد أرواح المئات من المدنيين العزل فى باكستان وأفغانستان بنيران هذه الطائرات الأمريكية .. العمياء !!

استخدام أمثال هذه الطائرات لم يعد جديدًا ، فقد نفذت بها المخابرات المركزية الأمريكية عشرات الهجمات لتصفية قيادات إسلامية فى باكستان وأفغانستان ، فشل أكثرها فى تحقيق أهدافها المقصودة ، ولكنها أودت بحياة مئات المدنيين من الأبرياء .. وتفعل إسرائيل شيئا من ذلك ، بمنتجات الترسانة الأمريكية المتقدمة ، فى اصطياد وحصد قيادات المقاومة الفلسطينية .. والغريب أن يتأخر للآن الالتفات إلى غيبة البسالة والشجاعة عن هذه العمليات وتهديدها لأخلاقيات الحروب !

غابت الشجاعة من زمن طويل ، حين حلت الطائرات ثم الصواريخ بعد المدافع والدبابات فى حصد الأرواح ، ليس فقط فى ميادين القتال ، وإنما حيث يوجد أى عمران .. ربما كانت فكرة المواجهة حاضرة فى حروب الدبابات والمدفعية التى لا تخلو من مواجهات تتبادل فيها النيران وتفسح

(*) المال ٨/٦/٢٠١٠ .

عملياتها مجالًا بنحوٍ ما للشجاعة والبسالة ، وربما وجدت شيئا من ذلك فى تصدى الدفاع الجوى بأسلحته المختلفة للطائرات المغيرة .. فقد أباحت أسلحة الدفاع الجوى وأفسحت قدرًا ما من المواجهة إزاء الحروب الجوية التى كانت الغلبة فيها لا تزال إلى قوات الجو !

ومع ذلك فغياب البسالة والشجاعة صاحب معظم عمليات الجو ، فماذا عساها تكون شجاعة أو بسالة الطيار الذى قاد الطائرة الأمريكية وأسقط القنبلة الذرية على هيروشيما فى ٦ أغسطس ١٩٤٥؟! أو زميله الأمريكى الذى قاد طائرة أخرى بعده بثلاثة أيام ليلقيها فى ٩ أغسطس على نجازاكى ، ليحصدا أرواح مئات الألوف ـ بل الملايين، من أبناء اليابان التى لم تجد بدا من التسليم! وماذا كان فى وسع المحصودة أرواحهم على الأرض من بسالة أو شجاعة ترد أو تقاوم القنبلة الذرية الملقاة على مدينتهم من أعالى الجو ؟!!

فى حروب الصواريخ ، ناهيك بعابرة القارات أو ألوف الكيلومترات ، لا مجال للبسالة أو الشجاعة ، ولا لأخلاقيات الحروب التى ولت مع انقضاء عهد المنازلات والمبارزات التى كانت تتقارع فيها سيوف ورماح وسواعد وقلوب .. ذهبت سير الأبطال الذين كانوا يجندلون العشرات من الفرسان والمشاة فى المعارك الحربية أو المنازلات الشعبية أو القبلية .. لم يعد لأخلاق الفروسية مجال بعد مواجهات الصواريخ .. لازلت أذكر ـ فيما أذكر ـ موقف الفارس على بن أبى طالب فى موقعة صفين حينما ضرب عمرو بن العاص ضربةً هائلة أسقطته من على جواده ، ولم يعد باقيا سوى الإجهاز ـ اليسير ! ـ عليه بضربة واحدة ، وربما إنهاء الحرب الضروس التى أشعلها معاوية بن أبى سفيان اعتراضًا ـ لتحقيق أطماعه ـ على ولاية أمير المؤمنين على بن أبى

طالب التى انعقدت عليها مبايعة أهل الحل والعقد وعامة الناس فى المدينة ومكة ومصر والعراق ، ومع ذلك أبى معاوية إلا أن يستنفر الشام التى كان يتولى إمارتها لسنوات لمحاربة الإمام !! أى عظمة تلك الفروسية التى أبت على الفارس على بن أبى طالب أن يجهز على مبارزه عندما كشف عن سوأته ، فآثر الفارس أن يلوى عنق جواده ويتركه ويمضى !!!

نعم ، ولت أخلاقيات الحروب ، بالصواريخ والطائرات ، والمدفعية والدبابات ، وولت بشيوع الحروب الكيماوية والجرثومية والميكروبية والقنابل الذرية وكافة أسلحة الدمار الشامل !

لم يقتصر أثر ذلك على ضياع أخلاقيات الحروب ، وإنما هزّ مع ضياع أثر البسالة والشجاعة ـ موازين القوى ، فصار حامل البندقية قادرًا على حصد أرواح المئات ، وقائد الدبابة قادرًا على هدم وتدمير عشرات البيوت وقتل العشرات والمئات ، وصار الصاروخ الأعمى ، وليس فقط الطائرة العمياء ، قادرًا على تدمير مدن بكاملها ونسف العمائر وقتل الألوف ، وأكثر إذا ما حمل رأسًا ذرية لم يعد نزولها على مدينة رهنا بطائرة عمياء أو مبصرة يقودها طيار ، وإنما صارت الرءوس الذرية متاحة على الصواريخ العابرة للقارات التى تُطلق من قاعدتها بلا مخاطرة وبلا حاجة إلى بسالة وشجاعة !

لم تضع فقط وتذهب أخلاقيات الحروب ، ولم يقتصر الأمر على ضياع فرصة لأى كثرة لتغلب الشجاعة كما كان يقال ، ولا عاد للشجاع مكنة صد وابل الطلقات أو القنابل أو الصواريخ .. إنما اختلت تمامًا موازين القوى ، وركب العالم من استطاعوا تدبير وصناعة وإنتاج الأسلحة ذات القوة التدميرية العالية ، انتهاء بأسلحة الدمار الشامل !!!

أعرفتم لماذا إذن تصادر أمريكا على إيران ؟!

ولماذا تتغاضى عما فى ترسانة إسرائيل من أسلحة دمار شامل وقنابل ذرية يقال إنها كافية لتدمير نصف العالم ؟!!

تتضاءل فرص الأمم والشعوب حين يفلت منها التقدم وتتأخر عن ركب الحضارة ، وتترك للطامعين فى أوطانها مجال السبق فى التسلح الحديث نوعًا وكيفًا .. وحين تغفل عن مخططات عالم الكبار فى احتكار السلاح واختصاص نفسها والحيلولة دون غيرها بامتلاك الأسلحة ذات الدمار الشامل والقوة التدميرية الهائلة . لم يعد من الفطنة أن تثق الشعوب فى حسن نوايا الكبار .. لو حسنت نواياهم لكان المسعى إلى تعميم تحريم أسلحة الدمار الشامل ، ولما ميزوا بين ربائب يترك لها الحبل على الغارب لتكريس ترسانة نووية ، ومطاردة باقى الأمم لحصرها فيما يراد أن تبقى تحته بلا فرصة ولا حقوق ولا كرامة !

******